أفاق التجديد ومقصدية البناء الروحي العقلي والجسدي للإنسان محمد إقبال نموذجا

الباحث عبد الصمد النعناع
أستاذ الفلسفة بالثانوي التأهيلي
جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش
المغرب

مقدمة:

استطاع المسلمون أن يسيروا ولحقبة من الزمن، وفقا لتعاليم القرآن والسنة النبوية الكريمة، من إنشاء حضارة عملية لا تهتم إلا بما تحته عمل، إلا أن ظروفا اجتماعية وسياسية جعلتهم يتعرضون لغزوات فكرية متعددة ومتباينة دفعتهم إلى جانب عوامل داخلية إلى النظر إلى الحقائق القرآنية التوقيفية، من أجل تحليلها وتقديمها في صورة مبوبة وبمناهج استدلالية، نقلية أحيانا وعقلية أحيانا أخرى، تماشيا مع ما تقتضيه الأنماط الفكرية والتعاليم الواردة في العالم الإسلامي، وكانت هذه بداية الصورة المصغرة للفكر النقدي في التراث الاسلامي على وجه الخصوص في الإسلام، والذي وجد أمام بيئة حضارية وأصول سيؤسس عليها أنساقه وأفكاره استنادا إلى المصدر الأصلي للدين والممثل في القرآن الى جانب السنة النبوية الشريفة.

وفي هذا سيتبين للمسلمين المجال المعرفي المسموح الاشتغال به، وتحذيرا من كل فرقة أو اختلاف عقائدي يعود أثره بالفرقة والتفكيك الاجتماعي والسياسي الذي يفوق العقل وحدوده تصوراته من جهة، ولا يقبله الإسلام كفطرة سليمة من جهة ثاني.

ولأجل تفادي هذا المشكل الفكري الذي سينجم عنه المشكل العقدي، نجد الشرع يؤكد على وجوب الاهتمام بالعمل وتوظيف القياس العقلي والاعتماد على مناهج استدلالية سليمة تكون نتيجته تنظيما للحياة العملية والواقعية والعلمية للمسلمين، وإسهاما في وحدة الأمة السياسية والاجتماعية والفكرية وتطويرا للحضارة الإنسانية.

في هذا السياق يأتي موضوع بحثنا إحياء لجدلية العقل والنقل الكلاسيكية، ومن أجل تجاوزها إلى جدل توفيقي نقدي لا يقصي أي طرف نظرا لكون الإنسان هو المعني الأول والأخير بهما. فالنقل وحي مقدس هو نص يخاطب الإنسان والعقل هو المخاطب بهذا النص.

وكلما تحقق هذا التوفيق كلما تحققت الوحدة في الأمة الإسلامية سياسيا واقتصاديا وأخلاقيا وعقائديا هي وحدة لا تلغي التعدد والتعايش والتنوع والحوار التي تعد مقومات المنهج النقدي في التراث الاسلامي.

عنوان الورقة: راهنية التجديد في التراث الاسلامي وأثره في تطوير الحضارة الانسانية والاحتكام إلى الفكر المقاصدي.

الإشكالية: بأي معنى المنهج التجديدي يحمل نقدا يستنطق النصوص في التراث ويعيد إحياء التفكير فيها من أجل تحيينها؟ وكيف أن هذا الاستنطاق إحياء للقداسة في النص ولمواكبة هذه النص تطور الانسان ونمو فكره وفاعلية واقعه الحضاري اجتماعيا وثقافيا؟ بعبارة أوضح كيف يصل المنهج النقدي النص وبجديد تضاريس الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية وفي تفاعل بين المطلق والنسبي؟

أهداف الورقة: المنهج التجديدي الية تحي النصوص التراثية، وتفتحها على أفاق إنسانية تأويلية، تجعل العلاقة بيننا وبين التراث علاقة مفتوحة على الكونية والسيرورة التاريخية للإنسان ووعيه وتقدمه الحضاري. ثم إنه يفتحنا على أن التاريخ والهوية معطيان متغيران، ما يعني أننا في كل عصر نعيد فهم الماضي فهما جديدا، مما يجعل النصوص وجودا مستمرا في حاضر متجدد قادر على التجاوز الدائم لما هو عليه. ناهيك عن أن الفهم الانساني للتراث هو في ذات الوقت تفكير بالتراث بشكل يراعي التعدد والاختلاف و فتح للحضارة الانسانية على التعايش والحوار.

العناصر الاساسية: التقديم والتعريف بالمنهج التجديدي وخصوصيته في دراسة التراث الاسلامي. أيضا نقدم نماذج من علماء إسلاميين قدماء ومحدثين وتجاربهم مع النصوص التراثية مع التعريج على أثر التجديد المقاصدي في فتح الحضارة الاسلامية على الكونية والخروج من الأحادية الفكر نحو المشترك الإنساني والتعايش الحضاري وتحقيق الأمن الروحي، مادام الرهان هو سلامة الإنسان روحا وعقلا ووجدانا...

- **تعريف التجديد لغة:**

يعرف ابن منظور التجديد في لسان العرب بما يلي: "الجدة هي نقيض البلى، ويقال شيء جديد، وتجديد الشيء صار جديدا، وهو نقيض الخلق، وجد الثوب يجد بكسر الجيم، صار جديدا والجديد ما لا عهد لك به".[1]

يستفاد من هذا التحديد اللغوي لكلمة التجديد ثلاث معاني:

- أن الشيء المجدد قد كان في أول الأمر موجودا أو قائما وللناس به عهد.
- أن هذا الشيء وأتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديما.
- ان هذا الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق.

ومن معاني التجديد والجدد الأرض المستوية، وفي المثل من سلك الجد آمن العثار وقوله تعالى:" **وأنه تعالى جد ربنا**" أي عظم، ومنه جدد الوضوء والعهد أي رفع الوسخ وهو يتوافق مع معنى التجديد اصطلاحا الذي يفيد عودة إلى الأصل النقي ويرفع ما تراكم عليه من أوساخ أفسدت الأصل.

ويقال ركب فلان جدة من الأمر أي طريقه ورأيا رآه.[2]

الجدة: الطريقة في السماء والجبل وقيل الجدة الطريقة، والجمع جدد وقوه عز وجل: "**جدد بيض وحمر**".[3] أي طرائق تخالف لون الجبل ومنه قولهم ركب فلان جدة من الأمر إذ رآى رأيا. وفي الصحاح، الجدة: الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه، وقال الزجاج، كل طريقة جدة وجاد.[4]

الجديد نقيض الخلق، ومعنى جدد القطع وكساء مجدد، فيه خطوط مختلفة وقيل فلان أصابه فرح وسرور فجد جده، كأنه صار جديدا.

وجد الشيء: يجده جدا: قطعه.

وجددت الشيء، أجده بالضم جدا: قطعته وحبل جديد مقطوع، وجادة الطريق: مسلكه وما وضح منه[5] والجديد: الموت.

وتجدد الضرع ذهب لبنه.[6]

1- مفاهيم ذات صلة:

الاجتهاد: لغة بدل الوسع وداخل المجال الفقهي، استفراغ الفقيه الوسع ليحصل له ظن بحكم شرعي وفيه بدل المجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال.

ومن معانيه أيضا استفراغ الوسع في تحصيل أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة ولهذا يقال اجتهد قي حمل الحجر لما فيه من الثقل وليس يقال اجتهد في حمل شيء خفيف، أي أن هناك بدل لتمام الطاقة.[7]

ومن تمة فالاجتهاد ليس مجرد آلية للقياس في الأحكام والسلوك بل هو أيضا هو سبيل اختيار النظريات وانسبها طبقا لحاجات العصر.[8]

التحديث: من بين معاني التحديث الإتيان بما لم يكن من قبل ومشتق من مصدرين الحدث والحدوث والحديث يقابل القديم، ومن معانيه أيضا وقوع شيء ما غير بعيد العهد.[9]

التجديد شرعا: التجديد هو إعادة تشكيل العقل المسلم ووصل ما انقطع بينه وبين كتاب الله باعتباره المصدر الوحيد.[10]

ثانيا: الوجه التجديدي في التراث الإسلامي ومقاصده الكونية بين الثابت والمتحول:

يقصد بالمنهج التجديدي في التراث الاسلامي الالية أو الاليات التي تسائل علاقتنا بالتراث تقديمه وفق خطا مسبقة ومقاييس ومعاني جديدة، الهدف من هذا نزع القداسة والسلطة في عن التراث الذي ليس إلا جزء من هذا التراث. بهذه الطريقة تفتح النصوص للاستيعاب المتغيرات الحضارية والثقافية والاجتماعية الإنسانية المتسمة بالتعدد والاختلاف.

إن المنهج التجديدي لا ينفصل عن النقدي في قراءة التراث الاسلامي إذ المقصدية ترنوا إلى إحياء وتعزيز تراث علمي حضاري بخصوصية إسلامية أصيلة في المناظرة والمقايسة دون الغاء المواجهة بين الانا والاخر بما لا يخل بآداب وأصول الحوار.

تأتي مشروعية حديثنا عن التجديد، في كون أن المخاطب بالنصوص هو الانسان تاريخيا وهو الانسان يواكبه ويحفزه على التفاعل معه فبالرغم من وحدة الخطاب في مستوياته المتعددة وهو ما يمكن الانسان المخاطب ان يتدخل في التاريخ ليساهم في اكتمال حكمته واستنباط معاني واردة في النص إما بشكل غيبي أو ايحائي أو رمزي وجعلها تتماشى مع تضاريس الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية وبهذه العلاقة التفاعلية تتحقق خصوصية القرآن الكريم كوحي وخطاب صالح لكل زمان ومكان دون تجاهل الخصوصيات الثقافية في بلاد المسلمين التي تبرز نقط القوة لديهم ونوع العوائق التي تحول دون الفهم العميق والتقدم القويم والانفتاح على الآخر.

يعلمنا المنهج التجديدي-النقدي[11] عموما في التراث الاسلامي خصوصا، أن المعنى رحّال رغم المرجعية الثابتة المتمثلة في القرآن والسنة فهناك ضرورة ملحة تقضي المزيد من النظر والحوار في التراث وليس في الأسس المرجعية. التراث هنا التفسيري والدراسات القرآنية الفقهية والكلامية والسلفية... لأن المقصود هو فهم للفهم ونقد لهما معا، فهما ونقدا محين يستوعب كل من الماضي وينيره، مستثمرا في ذلك مختلف مشارب المعرفة الانسانية من تفكيك ونقد وأنثروبولوجيا وسوسيولوجيا. وهو اختلاف نجد القران أسسه ودعا إليه في مواضع كثيرة. يقول تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"12[12]

يعلمنا كل هذا أن كل محاولة تظل محاولة ما دون ان تكون هي المحاولة النهائية أو بعبارة أوضح، كل فهم وكل جهد هو جهد وفهم ممكن وليس نهائيا لتوليد المعنى عبر السيرورة التاريخية للإنسان ووعيه وتقدم مجتمعه. عموما لا يخلو اي فهم للنص من شرطه الإنساني الذي يعكس التاريخ الفكري والثقافي للمخاطب بالنصوص، الإنسان الفرد والإنسان في المجتمع. وعليه أن يرقى إلى مستوى التفكير بالتراث إلى التفكير في التراث وجعله يسع رحابة الوجود ويسع إبداع وتجارب أكثر اتساعا ودقة والتي أصبحت تصوغ الواقعة وتحكم العالم بقيمها ومفاهيمها وشبكتها العلائقية.

ثالثا: الشريعة الاسلامية، من الروحي إلى التفاعل التاريخي.

تأتي مشروعية هذا العنوان، من كون المرجعيات الدينية كلها والتفاعل الانساني التاريخي معها تؤكد كلها مركزية الانسان بدءا من الخطاب القرآني مرورا بالسنة النبوية ووصولا إلى التأويل والنقد، باعتباره السبيل الذي يربط ربطا حقيقيا بين الوعي الديني والوعي التاريخي سيرا بذلك نحو أفق كوني رحماني (جبروتي) عبر مداخل التربية والتعليم والتأطير الثقافي.

إن هذا من شأنه أن يبني نهضة إنسانية إسلامية متأملة للعالم الغيبي اللامتناهي، دون السقوط في النزعة الإقصائية، التي تجعل الغيب معزولا عن الواقع وتضاريسه المتعددة.[13] بعيدا عن التحيز ضد الذات وما يمكن أن تؤدي إليه من التفكير في بدائل كالعنف والنبذ والاقصاء. وتعويض هذه البدائل بعملية الفهم التي تترجم رغبة الانسان الأكيدة والدائمة في التفاعل مع النصوص وعما قيل عن هذه النصوص. يتخذ هذا عدة تجليات من ضمنها تحويل التعامل مع النصوص من علاقته العمودية التي تحمل سلطة إلى علاقة أفقية تتيح التأويل الإيجابي بين النص والمتلقي وبين السياق « contexte » .

بناء على هذا ستفتح دلالات النصوص التراثية على خبرة إنسانية تاريخية تحدث قلبا في المعنى من التفكير في الله ،إلى التفكير في الانسان كمركز ،لأن المشكلة الوجودية و الاخلاقية والاجتماعية والسياسية مرتبطة بالإنسان وليس بالله .

إن الحاجة إلى منهج نقدي لتراثنا تكمن في كونه يعيد قيم الوجود المعيارية وفق نظرة مقاصدية والربط بين مراتب الفعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، نحو غايتها الاسمى ربطا وثيقا. لذلك فالسؤال الذي يطرحه المفكر محمد إقبال يحضر دائما على مسرح الواقع الاسلامي في اتجاه مقاصدي كوني وهو: هل شريعة الاسلام قابلة للتطور؟

الجواب على هذا السؤال، هو ما يشكل جوهر الفكر التجديدي عند إقبال. حيث اعتبر التجربة الدينة مصدرا من مصادر العلم. لذلك دعوة الاسلام إلى الاستشهاد بعالم الحس، أي عدم إغفال الجانب الواقعي من حياة المسلم. فعلى هذا التوجه يمكن حسب إقبال تأسيس الاجتهاد كمسعى إلى ضرورة التشريع، وينتقد بالمقابل المذاهب القائلة بتجميد الشريعة الاسلامية رافضة مشروعية الاجتهاد...

إن هذه النظرة البَنَّاءة محاولة لإيقاظ وتطوير الفقه وأحكام الشريعة بما يتفق مع مصالح الناس وواقعهم وبما يتماشى مع الأفق الاجتماعي في كل عصر جديد...

إن نظرة تجديدية كهذه تستمد مشروعيتها، من القران نفسه الذي ينظر إلى الحياة كمجرى سائل يظل يتجدد ويتغير. وكل تحريف لهذه الحركية هي نتيجة لعوامل متداخلة حسب إقبال، هي التي تحول دون تأسيس فكر إسلامي رحّال. من بينها نذكر:

- عدم تفعيل البواعث الحقيقية للحركة العقلية الإسلامية.

- المغالاة من قبل بعض المتفلسفة في تصوراتهم ونظرياتهم الجانحة عن العقيدة.
- انطفاء شعلة العلم عقب سقوط بغداد ق7هـ ق13م.

يصر إقبال إذن على ضرورة الاعتبار بالقران، الذي يناشد العقل الاستدلالي والتجربة على الدوام، وأيضا على النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية. إلا أن هذا الإصرار لا يفهم من إحلال العقل محل النقل، بل يفهم من خلال مقصديته المجسدة، في خلق نزعة حرة في تمحيص التجربة الدينية. باعتبار أن هذا النهج يفتح سبلا جديدة للمعرفة في ميدان التجربة الروحية والحضارية معا عند الإنسان.

على سبيل الختام:

خلاصة القول أن الاعتقادات الصحيحة لا تتهرب بتاتا من المواجهة النقدية التي تحييها وتجددها علو الدوام. فليس بوسعنا إذن المقابلة بصورة سطحية بين الانتقاد والاعتقاد: فالتجديد الأكثر نقدا يتضمن لا محالة اعتقادات قوية، والاعتقاد الديني يتوفر اليوم من دون شك على حس نقدي لم نعد نجد له نظيرا في مجتمعاتنا.

واليوم أيضا نحن بحاجة ماسة إلى ما يخلق الاطمئنان في قلوبنا ويحقق البناء الحضاري الإنساني والمجتمعي –روحا وعقلا وواقعا– عبر التوسل بحجج دامغة أو حقائق سحرية تمنح لعالمنا، الموسوم بالتعقيد الشديد، نوعا من التماسك والبساطة والحصانة التعبدية والامن الروحي، وكذا المرونة في تقبل الاخر المختلف ونسج روابط العقيدة والإنسانية معه. هنا تصبح أدوار التجديد والانتقاد والاعتقاد متكاملة بما يحقق المشترك الإنساني ويبنه ويمدده ليتماشى مع مضمون الآية حيث يقول تعالى: "فأينما ما تولوا وجوهكم فثم وجه الله"[14]

إن من شأن الاعتقادات الوازنة والراسخة أن تعيد تأسيس نقاش أكثر خصوبة، وتَهَبُ للجميع الإحساس بأننا نتوجه في العالم نحو مزيد من الحوار والعمل المشترك. بل وأن هذا العالم كله تربة، يمكن أن نستنبت فيها عالما مشتركا كإمكان عقدي واجتماعي– حضاري، يمثل الوجه الرحمي–من الرحمة–للشريعة تأسيسا لمبدأ الإحسان إلى الناس وغير الناس، لا الوجه الوعيدي الجبروتي فقط[15].

إن هكذا فلسفة وروح تجديد ونقد، ينطلق من مرجعية رحبة هي، أن العالم ليس محدودا ولا نهائيا وأنه رحب جغرافيا وقيميا وثقافيا وعرقيا...، ثم إنه عالم لا يكتفي بالإخبار والنقل، بل إنه يسائل، ويفتح الأبواب أمام أسئلة أخرى ممكنة، قد تكون ذات طابع ديني أو فقهي ز قد تكون ذات طابع إبستيمي بنائي، تحيي ما اندرس من الدين والحياة معا في غياهب النسيان، منفصل بذلك عن أحادية الافتراضات التي تغلق النقاشات في زوايا ضيقة. لأنه لا يدعي أنه وحده يملك القدرة على فهم ما يجري. على هذا النحو يُفتَح المجال أمام روح الانتقاد، التي تؤمن بتعددية وجهات النظر والعمل الدقيق، القائم على التقاطعات والتشابكات والتمفصلات المختلفة. لكن في الوقت ذاته يوافق الشاهد التمتع بالمصداقية، بشجاعة، على أن يكون له صوت، وليس مجرد خطاب قابل للتبادل، وأن يقصد ما يقول ويقول ما يقصد، ويعرضه دون فرضه على الآخرين.

هذا هو الدرس البليغ الذي نتعلمه بالاحتكاك مع نصوص، كل الذين يؤسسون لثقافة الاختلاف والتجديد والتأويل، باعتباره فَهمًا للفهم وإمكان ثاني لأن يكون الاخر على صواب، على أنه صواب نسبي.[16]

الهوامش:

1 ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، ج:1 مادة جدد، ص: 562.

2 المصدر السابق، ص: 561.

3 القرآن الكريم، سورة:

4 ابن منظور لسان العرب، مصدر سابق، ص: 561.

5 ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ص: 563.

6 القاموس المحيط، ص: 246.

7 الجرجاين ع القاهر، التعريفات تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة بدون تاريخ، ص: 12.

8 التراث والتجديد، ص: 23.

9 محمد الكتاني، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي، ج: 2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط: 1، 2000، ص: 111.

10 طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي، مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، فلسفة قضائا إسلامية معاصرة، الكتاب 12، ط: 1988، ص: 23.

11فضل الرحمان. الاسلام وضرورة التحديث. نحو إحداث تغيير في التقاليد الثقافية. ترجمة إبراهيم العريس. دار الساقي.1993. ص. 16

12 القران الكريم. سورة الحجرات الاية

12 القران الكريم. سورة الحجرات الاية.13

13 إقبال محمد. تجديد الفكر الديني في الاسلام. ترجمة عباس محمود. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة. القاهرة. 1968.ص91

14-القران الكريم، سورة البقرة، الاية 115

14-محمد الشيخ. مقال بمجلة الإحياء، سؤال الاخلاق ونظام القيم، الرابطة المحمدية للعلماء، العددان 32. 33 عنوان المقالة: قيم في الحضارة العربية الاسلامية. ص 116

16 إقبال محمد. مرجع سابق صفحات 07 و214